

التناسب في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي

هاشم العزام*

ملخص

سعى هذا البحث إلى قراءة مصطلح التناسب في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي في ثلاثة محاور، تناول في المحور الأول: التناسب في الألفاظ المفردة، وتناول المحور الثاني التناسب في الألفاظ المؤلفة وتناول المحور الثالث التناسب في المعاني. جاء ذلك من خلال الأمثلة الموضحة لمصطلح التناسب.

المقدمة

تحدث ابن سنان عن المناسبة أو التناسب في سر الفصاحة، من خلال حديثه عن الفصاحة نفسها، التي يجب أن تتحقق عنده في اللفظ منفرداً أو في السياق، حتى يستقيم الكلام، منثوراً كان أم منظوماً. وظل "هذا الهم يعكس انشغال ابن سنان بقوانين التناسب في العمق الشعري على طول الكتاب، وكأن الذي يروقه من الشعر صورته. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية، فإن الإعجاب عنده قرين براعة الشاعر في كيفية تشكيلة العمل الشعري، وفي إيقاع التجانس بين عناصره"¹. وكأني بالخفاجي يمضي وهمه البحث عن تحقق التناسب والكشف عن التلاؤم من خلال معالجة النص الأدبي، وإبعاد كل ما من شأنه تشويه النص وإرباك المتلقي، وقد نص صراحة على أسباب الغموض، ولم يكتف بهذا، بل علل هذه الأسباب في الكلام. وذكر كل ما من شأنه أن يضمن تلاؤم الكلمة أو الكلام المؤلف كي يعبر به من الفصاحة إلى البلاغة، وقد جعل لفصاحة اللفظة أو الكلام المؤلف شروطاً عدة.

ومن هنا تجيء مهمة هذا البحث صعبة وشاقة؛ ذلك أن التناسب يلامس كامل الكتاب، ولأن جل الكتاب يتحدث عن فصاحة الألفاظ والسياقات ومواءمة ذلك كله للمعاني، فسيعرض البحث لمفهوم التناسب عند الرجل بوصفه مظهراً من مظاهر الجمال، أو هو الأسلوب الذي يؤدي إليه "إن يعد التناسب قرين اللذة؛ لأن اللذة هي إدراك المتلائم والأثر الناجم عن وقع المتجانس في

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* كلية إربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، إربد، الأردن.

النفس" ²، وبصورة أخرى تتحول المناسبة إلى هدف يسعى إليه المبدع، بل يجب أن يكده نفسه كي يحققه، ويتحققه الرونق للنص، واللذة للمتلقي، هذا في الوقت الذي يحرص فيه الباحث والبحث على رصد المظاهر التي يتجلى فيها التناسب في الألفاظ والسياقات والمعاني والوقوف على الصور الإيجابية، التي تفضي - حسب ابن سنان - إلى البلاغة أو الصور التي انتفت عنها صفة البلاغة أو الفصاحة، وذلك بسبب افتقادها للتناسب؛ لمخالفتها الشروط الفنية التي نص عليها ابن سنان داخل النصوص. ويرنو هذا البحث إلى تفصيل القول في مصطلح التناسب حتى يسهل القبض عليه، وقد رأت الدراسة الحديث عنه ضمن ثلاثة محاور .

المحور الأول:- التناسب في الألفاظ المفردة

جاء عند ابن سنان " إن الفصاحة نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ..... وتلك الشروط تنقسم قسمين: فالأول منها - يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه، والقسم الثاني - يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ³. وبعد أن يقر الخفاجي هذه الحقيقة يبدأ بذكر أسباب الغموض التي من شأنها إبهام النص وتعميته " وإذا كان هذا مفهوماً فالأسباب التي من أجلها يغمض الكلام على السامع ستة: اثنان منها في اللفظ بانفراده، واثنان في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض، واثنان في المعنى" ⁴. وسيدأ البحث الحديث عن الذي في الألفاظ المفردة. فأما اللذان في اللفظ بانفراده، فأحدهما - أن تكون الكلمة غريبة من وحشي اللغة، والآخر - أن تكون الكلمة من الأسماء المشتركة في تلك اللغة .

تحدث ابن سنان في هذا المحور عن التناسب في الألفاظ المفردة، من خلال عدة أمور فنية متى توافرت في اللفظ المفرد وصف باللفظ الفصيح، منها الحديث عن التناسب في البنية الصوتية للفظ المنفرد. فمتى تحقق، يتحقق التلاؤم على " أساس حسن الكلام في السمع، الناجم عن صفات الألفاظ من جهة أصوات الحروف" ⁵. كما تحدث في هذا المحور عن اللفظ المفرد من الناحية النحوية واللفغوية والصرفية وحتى الذوقية والاجتماعية، من حيث قبول اللفظ وجريانه على العرف والعادة، وما يألّفه السمع والذوق، وما يمجه وينبو عنه، ويكاد يجزم الدارس أن ابن سنان في هذا المحور قد استوفى كامل الشروط التي تضمن التناسب في اللفظ المفرد، ولم يترك شاردة إلا وأتى بها؛ كي يصل باللفظ إلى مرتبة الفصاحة.

فقد تحدث ابن سنان عن الجزء الأول - أعنى الألفاظ منفردة - حديثاً واضحاً، إذ حصر الفصاحة بها " والفرق بينها يعني الفصاحة وبين البلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ" ⁶. وأولى هذه الشروط أن فصاحة اللفظة تتحقق عندما يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج، وعلّة هذا واضحة وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى

الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة، إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة"⁷. إن يتحقق التناسب في اللفظ المفرد في حديث ابن سنان عن التنافر لا عن التماثل. "وكان يقصد بذلك الكشف عن اتفاق طبيعة التناسب في كل من الشعر والرسم، وما دامت الألوان المتباينة في تقديره أفضل من الألوان المتقاربة، لأن الضد يظهر حسنه الضد، فلا بد أن اللوحة التي تجمع بين ألوان متباعدة يقع بينها تجانس أحسن منظرا من الأخرى التي تتشكل من ألوان متقاربة"⁸. وهذه قضية نسبية حول مفهوم الجمال، إذ ذهب رجاء عيد إلى رأي آخر مختلف تماما عما ذهب إليه الرجلان" وهذه شقشقة لا يسلم بها. فمن قال: إن الألوان كلما كانت شديدة التباين، كانت للناظر أحسن. وأي ذوق يسلم بذلك؟؟ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فلا وجه للمقارنة بين الثوب واللفظ"⁹. ويعتقد الدارس أن (رجاء عيد) وقف عند حدود الكلام، ولم يسبر غور السياق الذي تحدث به الخفاجي، ولأنه - كما قال عصفور - يتحدث عن الفن، وعن علاقة الشعر بالرسم أكثر من حديثه عن الثوب واللفظ، فالمقارنة مقصودة لمعان تتجاوز ما وقف عنده رجاء عيد - الثوب واللفظ كمادتين- بل المقصود دلالة الثوب في الرسم، ودلالة اللفظ في الإبداع الشعري بوصفه موسيقا وإيقاعا. وهذه مقايسة صحيحة تم النظر إليها من هذه الزاوية، ولقد تحدثت عنها المدونة النقدية؛ لذا يعتقد الدارس أن عيد قد جانب الحقيقة بنفي المقاربة التي ذهب إليها ابن سنان.

ثم جعل ابن سنان من ذلك سببا لشرط الفصاحة الثاني " أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية"، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه "¹⁰. يلح ابن سنان على توظيف أكبر قدر من حواس الإدراك في الاستمتاع بإيقاع اللفظ على السمع، كما اللون على النظر، فمقياس التناسب الصوتي للفظ هنا هو سهولة النطق وسلاسة البنية اللفظية وحسن وقعه على السمع ويتم ذلك وفق إجراء فني لقصد تجميل اللفظ في السمع وتسهيل النطق، وهذان شرطان يتعلقان باللفظة من ناحية الأصوات، تحدث ابن سنان في هذا المحور - أعنى تأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية - عن التناسب. وقد ضرب أمثلة كثيرة، ولكن الباحث سيكتفي بذكر مثلين. كقول أبي الطيب.¹¹

إذا سارتِ الأحداجُ فوق نباتهِ تفأوحَ مسكُ الغانياتِ ورندهُ

فإن تفأوح كلمة في غاية من الحسن. وهذا مثال يتجلى فيه جمال التناسب لما له من وقع جميل على السمع، ولفصاحة الكلمة وصحتها، فالتناسب يحاول هنا تبرير جمال الجانب اللفظي من الشعر، وذكر ابن سنان مثلا يتجلى فيه ما يكره قول أبي الطيب :

مباركُ الاسمِ أغرُّ اللقبِ كريمُ الجرشيِّ شريفُ النسبِ

فإنك تجد في الجرشي تأليفا يكرهه السمع وينبو عنه، وأين كلمة النفس من هذه اللفظة¹². فإن الدارس يرد سلبية استخدام اللفظ جرشي، إلى أن اللفظ مفخم مضخم لا يتناسب مع السياق العام لألفاظ البيت، ولا لمعناه، وكان بإمكان الشاعر استبدال الكلمة الجرشي بكلمة النفس¹³. وهناك شرطان يتعلقان بكه اللفظة من الناحية الدوقية وجريانها على العرف والعادة.

وذكر ابن سنان شرطا ثالثا من الشروط التي فيما لو تحققت تضمن التناسب، وهي أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية، وذكر مثالا على ذلك قول أبي تمام :

لقد طلعتُ في وجه مصرَ بوجهه بلا طالع سد ولا طائرٍ كهلٍ

فإن كهلا ما هنا من غريب اللغة¹⁴، وهذه الكلمة لا تجري مجرى المألوف على السمع والمتداول الذي تألفه الأذن، لذلك يتابع مهاجما ومحدرا الشعراء الذين يجشمون أنفسهم عناء استخدام هذه الألفاظ قائلا : " وإن كان هؤلاء الشعراء أرادوا الإغراب حتى يتساوى في الجهل بكلامهم العامة وأكثر الخاصة، فما أقبح ما وقع لهم! " إن سررتهم بمعرفتكم وحشي اللغة، فيجب أن تغتموا بسوء حظكم من البلاغة¹⁵. وعابوا قول جرير:

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

فقال الوليد بن عبد الملك أفسدت شعرك ببوزع¹⁶. ولم يخف ابن سنان إعجابه ببعض الأبيات التي بلغت حدا من الجمال، فكان كثيرا ما يعلق عليها بكلام جميل في الوقت الذي كان ينتقد فيه بعض الأبيات، إن يقول : " وإلا لو أمكنه أن يذكر اسم مورد من الموارد يجري هذا المجرى، كان أحسن وأليق، أو كما قال معلقا على قول الكميت:

وأدنين البرود على خدودٍ يزئن الفداغم بالأسيل

فإن الفداغم كلمة رديئة¹⁷، وعلق على كثير عزة :

ماروضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثاؤها وعرارها

ذكر الجثاها؛ لأنه اسم غير مختار، ولو أمكنه ذكر غيره، كان عندي أليق وأوفق¹⁸.

كما ذكر من التناسب في اللفظة المفردة " أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، كقول أبي تمام:

جليت والموت مبدٍ حرَّ صفحتهٍ وقد تفرعن في أفعاله الأجل

فإن تفرعن مشتق من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة،¹⁹ ويذكر مثالا آخر قول أبي نصر عبد العزيز بن نباتة :

أقام قوامَ الدين زَيْعُ قناتِهِ وَأَنْصَحَ كَيْ الجرحِ وهو فَطِيرُ

فتأمل لفظه فطير تجدها عامية مبتدلة،²⁰. ويتفق الدارس مع إحسان عباس في موقفه من الألفاظ الغريبة أو العامية إن يقول " وهو ما يزال يردد القول برفض إيراد الألفاظ الغريبة المستثقلة في الشعر والنثر على السواء، ويقابل الألفاظ الغريبة مما يسميه بالألفاظ العامية، لأنها تكون مبتدلة، ويواجه الخفاجي الألفاظ بحساسية زائدة، ويعد كلمات أخرى من هذا القبيل لا ذنب لها إلا أن العامة جنحت بها إلى معنى مبتذل، وإخضاع الألفاظ لهذا التقدير معناه تحكيم العامة في مدى تقبلها للألفاظ في الشعر، مع أن ما يريده الخفاجي هو في الأصل الابتعاد عن ألفاظ العامة " ²¹.

ويظهر للدارس من تركيز ابن سنان هذا، وكثرة الأمثلة التي ساقها على هذا المحور، ومدى بشاعة وتشويه النصوص بهذه المفردات العامية، أنه لا يدل إلا على مدى تحذيره الشعراء من السقوط في استخدام هذه الألفاظ، وابتذال الشعر بها، وهو يحرص على أن تحترم قواعد اللغة وفنية الألفاظ، وذكر شرطاً آخر في اللفظ على انفراد قائلاً " أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة " ²². وفي هذا الشرط يطوف على طائفة من الشواهد التي خالفت العرف العربي في الاستعمال، خاصة في مجتمع لغوي ونحوي لا يسمح بالتداول على قواعد اللغة مهما كانت ثقافة التبرير، أو تحت ما يسمى بالرخص اللغوية، أو الضرورات الشعرية، ويدخل في هذا القسم كل ما يينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية مثاله : أنكروا على أبي الشيص قوله:

وجناحٍ مقصوصٍ تحيِّفَ ريشَهُ ريبُ الزمانِ تحيِّفَ المقرَّاضِ

وقالوا ليس المقرَّاض من كلام العرب " ²³. وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة، مثاله قول أبي عبادة:

يشقُّ عليه الرِيحُ كلَّ عَشِيَّةٍ جِيوبَ الغمامِ بينَ بَكَرٍ وأيمٍ

فوضع الأيم مكان الثيب، وليس الأمر كذلك ، ليس الأيم الثيب في كلام العرب، إنما الأيم التي لا زوج لها بكرًا كانت ام ثيبًا ²⁴، وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل، وهو أردأ اللغات فيها لشذونه وذلك مثل قول البحترى:

متحيرين فباهت متعجبٌ مَمَّا يرى أو ناظرٌ متأملٌ

فقول باهت لغة رديئة شاذة، والعربي المستعمل: بهت الرجل فهو مبهوت ²⁵، فكل هذه النماذج التي يسوقها الخفاجي تخالف سنن العرب في التأليف. ولقد أشاروا إليها بشكل لافت على

اعتبار أنها خرق لقوانين اللغة ومخالفة لقواعدها؛ لذلك جوبهت بالرفض؛ لأنها تصدم المتلقي في وعيه اللغوي والنحوي الذي تربى عليه عبر قرون طويلة، وقد يكون لأن الكلمة بخلاف الصيغة في الجمع كقول الطرماح:

وأكره أن يعيبَ عليَّ قومي هجايَ الأرذلين نوي الحناتِ

فجمع إحنة على غير الجمع الصحيح؛ لأنها إحنة وإحن، ولا يقال حنات²⁶، "ومن أبرز الذين اشتروا موافقة القياس اللغوي في الفصاحة ابن سنان الخفاجي الذي أرجع المخالفة إلى مجموعة من الأسباب²⁷. ويدخل في هذا القسم ما يسمى بالضرورة الشعرية. ومنه أيضا أن يبدل حرف من حروف الكلمة بغيره، ومنه أيضا إظهار التضعيف في الكلمة، ومنه أيضا منع الصرف مما ينصرف، وصرف ما لا ينصرف، ومنه قصر الممدود ومد المقصور وحذف الإعراب للضرورة وتأنيث المذكر وفق بعض التأويل وتشديد الكلمة المخففة...." فإن هذا وأشباهه وما يجري مجراه، وإن لم يؤثر في فصاحة الكلمة كبير تأثير، فإنني أؤثر صيانتها عنه؛ لأن الفصاحة تنبئ عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها، ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب اطراحها"²⁸. فإن جميع هذه الشواهد - على اختلاف أبوابها - ردت في نظر ابن سنان لافتقارها للياقة والتناسب، فوقعت موقعا غير لائق، ولا تعد هذه المخالفات مما يعرف اليوم بالانحراف الأسلوبي؛ إذ هذا اللون له مواصفاته الفنية التي يجيزها أهل اللغة، ولا يعد كل تجرؤ على قواعد اللغة انحرافا أسلوبيا، بل هو خروج عن جادة الصواب، ومخالفة لسنن العرب في النظم، لذلك مجه الذوق ورفضه.

وأضاف ابن سنان للفظ المنفرد شرطا آخر يضمن لها التناسب، وهو ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره. فإذا أوردت - وهي غير مقصود بها ذلك المعنى - قبحت، وإن كملت بها الصفات التي بينها²⁹. لكن لا يعني هجر المعنى الأول للمفردة، وعدم تداوله وشيوع المعنى الآخر دلالة على قبح اللفظ، لكن شيوع المعنى السلبي ينسي المعنى الآخر للفظ، فابن سنان لا يريد من الشاعر أن يقحم اللفظ في سياق معروف بالمعنى السلبي لدى جمهور الناس، فيضيع المقصود من النص، قال عروة بن الورد:

قلتُ لقومٍ في الكَيْفِ تروحوأ عشيةً بتنا عندما ماوانَ رزُح

والكَيْفِ أصله الساتر، ومنه قيل للترس كَيْف، غير أنه قد استعمل في الأبار التي تستر الحدث، وشهر بها"³⁰، فهذا مثال على المشترك اللفظي، وهو ما يستكره ذكره. وذكر من شروط الفصاحة أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف؛ فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة، قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. ومثال ذلك قول أبي تمام:

فلأذربيجانَ اختيالُ بعدما كانت معرَّسَ عبْرَةٍ ونكال

" قوله فلأذربيجان كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها، وهي غير عربيية" ³¹ فهذان سببان يكتفيان لرد اللفظ ونفي قبوله. وذكر من التناسب أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك فإنها تحسن به. ³² والخفاجي يرى أن التصغير في كلام العرب لم يدخل إلا لنفي التعظيم " ولا فائدة من التصغير في نظره إذا وضع للتحقير والتعظيم معاً، وتصغير التعظيم محل بفصاحة الكلمة ، ³³ ومعظم هذه الشروط تدخل في فصاحة الألفاظ المؤلفة، والإخلال بها قد يؤدي إلى زيادة القبح والتنافر في الكلام؛ لأنه حين تكون الألفاظ مجتمعة تحتاج إلى دقة في التركيب واختيار اللطيف منها، ³⁴ لذلك حاول هذا المحور أن يركز على اهتمام ابن سنان بتنقية النصوص من التجاوزات التي تقع في الألفاظ، وهو بهذا ينزه الألفاظ من الوقوع في الركاكة؛ لذا وجده الدارس لا يقدم أي تهاون من شأنه أن يخل بفصاحة اللفظ المفرد.

المحور الثاني : الكلام في الألفاظ المؤلفة

إذا كان التناسب من حيث الجوهر " مبدأ أساسياً في كل أنواع الفن وأشكاله، وله في كل نوع أو شكل مظهر متميز ينبع من طبيعة الأداء التي يتشكل منها " ³⁵ ، فمن الطبيعي أن يقوم الدارس في هذا المحور بالبحث عن التناسب في السياق الذي يتشكل من كلمات تنضاف بعضها لبعض من أجل تشكيل نص أدبي خال من العيوب، محاولاً أن يرقى بالمعنى إلى درجة توصله إلى البلاغة، فقد ذكر ابن سنان الأسباب التي لأجلها يغمض السياق، ويدخله الضعف، ويبعده عن الفصاحة . " أما السببان اللذان في تأليف الألفاظ فأحدهما فرط الإيجاز، والآخر إغلاق النظم" ³⁶ . " يتحدث ابن سنان في هذا المحور عن التأليف شعراً ونثراً، مستحضراً الصورة الصناعية في العملية الإبداعية " ³⁷ . متحدثاً عن الموضوع والصانع والصورة والآلة والغرض، طالبا التناسب والدقة في كل هذه المكونات، ثم يتحدث عن صفات توجد في التأليف، من شأنها تجويد التركيب والراقي به، والابتعاد به عن كل ما يشينه ويصفه بالركاكة والضعف ويبعده عن الفصاحة. يحاول طبانة أن يستدرك على الخفاجي في ذكر معنى الفصاحة وتوسيع مدلولها، فبدلاً من أن تكون محصورة في الألفاظ منفردة، فإنه يريد لها في التأليف أيضاً، قائلاً: " أما الفصاحة فإذا كان معناها الظهور والبيان - كما أورد - فإنها تكون وصفاً للفظ وللتركيب، وإن كان الخفاجي يعود ويعترف بأن كل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً، ³⁸ . " ولم يقصر الخفاجي الفصاحة على اللفظة المفردة، وهي الوحدة في موضوع الكلام، ولكنه تجاوزه إلى الكل الذي ينشأ من مجموع الكلمات والنظم الذي يتألف منها" ³⁹ ، ولا بد إذاً من تنقيته ومن بنائه بناءً يضمن سلامته. وحتى يكون كذلك يجب أن يتصف : " تأليف اللفظ من حروف متباعدة المخارج، وبيانه أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتباعدة في تأليف الكلام" ⁴⁰ . " والأمر الثاني أن تجد اللفظة في السمع حسناً

ومزية على غيرها" ⁴¹ . ثم يقول: " ونعود إلى ما يختص بالتأليف وينفرد له إذ إن أحد الأصول في حسنه وضع الألفاظ حقيقة أو مجازاً لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فهمه " ⁴² . هذا بالرغم من إيمانه الأكيد أن أي عبث أو إخلال في النظام التركيبي للجملة حتماً سيؤدي إلى تشويش المعنى في ذهن المتلقي وإرباكه؛ لذا نرى ابن سنان يؤكد دور المبدع في العملية الإبداعية، ويذكر د. مومني تبريراً منطقياً في إيقاع التناسب في الألفاظ المؤلفة وأثر ذلك في المعنى وعلى ركن العملية الإبداعية " المتلقي " إذ يقول: " إن جودة التأليف في الشعر أو لأقل صياغة المعنى وطريقة تقديمه هي الأصل في إيقاع التأثير في المتلقي، وهي الأس، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم إلحاح ابن سنان على ضرورة أن توضع الألفاظ مواضعها، ونفهم في الوقت ذاته تأكيد ابن سنان ضرورة التشاكل والتناسب بين الألفاظ" ⁴³ ، وقد أقول: " إن الإلحاح على قواعد التناسب يمكن أن يكون إلحاحاً على التوافق الخارجي والتجانس الكلي" ⁴⁴ ، " والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى اتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها، واتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج" ⁴⁵

كما ألح ابن سنان على التناسب في الألفاظ المؤلفة، وتحدث عن التناسب في الأغراض قائلاً: " وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف، فإن كان مدحاً، كان الغرض به قولاً يبنى عن عظم حال الممدوح، وإن كان هجواً، فبالضد، وعلى هذا القياس كل ما يؤلف " ⁴⁶ " ويندرج تحت هذا المحور الملاءمة بين اللفظ والمعنى؛ فإن من حق المعنى الشريف اللفظ الشريف الذي يليق به واستشهد بقول أبي تمام:

يا أبا جعفرٍ جُعِلَتْ فِدَاكَ فاق حُسْنَ الوجوه حُسْنُ قَفَاكَ

فذكر القفا من الألفاظ التي تستعمل في الذم، ولم تجر العادة باستخدامها في المدح " فلا تلاؤم فيها بين اللفظ والمعنى، ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف " ⁴⁷ ، وتحدث عن التناسب في تأليف الكلام، وبيانه أن يتجنب الناظم تكرار الحروف المتتالية في تأليف الكلام. " وقد حاول ابن سنان الخفاجي أن يدرس أصوات الألفاظ وأن يحدد عناصر الجمال ويبحث فيها، ويبدو أنه انتهى إلى أن حسن الألفاظ يرجع إلى بعد مقاطعها" ⁴⁸ ، وأكد ذلك جابر عصفور إذ قال " وكذلك الحروف في كلمات الشعر بخاصة كلما تباعدت مخارجها، كانت أحلى في السمع من الحروف التي تقارب مخارجها " ⁴⁹ ومثاله:

لو كنتُ كُنْتُ كُتِمْتُ الحُب كنتُ كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وليس يحتاج إلى دليل عن قبحه للتكرار أكثر من سماعه " ⁵⁰، فقد بان أن تكرر الحروف والكلام يذهب بشرط من الفصاحة، وإذا كان يقبح تكرر الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع.

وقوله:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

فمبني من حروف متقاربة ومكررة، ولهذا يثقل النطق بها ⁵¹، " ومن أمثلة الألفاظ المتنافرة هذا البيت الذي أورده الجاحظ، وذاع بين علماء البلاغة، وجعلوه شاهدا على المتناهي في الثقل، وجعله أبو الحسن علي بن عيسى الرماني شاهدا على التنافر الذي هو نقيض التلاؤم " ⁵²، وما أعرف شيئا يقدح في الفصاحة ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنبه وصيانة نسجه عنه " ⁵³. ومن الأمور الفنية التي تضمن التناسب في التأليف " وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا لا ينكره الاستعمال، ولا يبعد فهمه " ⁵⁴.

" ويندرج فيه مباحث ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسدانه، ومنه حسن الاستعارة، ومن وضع الألفاظ موضعها عنده ألا يقع فيها حشو، ومن الوضع الصحيح للألفاظ ألا تكون فيها معازلة، ومن الوضع الصحيح للألفاظ ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة في المدح، ويساق في الجد ألفاظه، وفي الهزل ألفاظه، وألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنتثر ألفاظ المتكلمين والنحويين " ⁵⁵. وسيقوم الدارس بإيراد الأمثلة على الأبواب المتقدمة التي ذكرها في تأليف الكلام. فمن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه في بعض المواقع أو سلوك الضرورات، مثاله قول الفرزدق.

وما مثله في الناس إلا مُملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد إعرابه، لأن مقصوده وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه يعني هشاماً؛ لأن أبا أمه أبو الممدوح " ⁵⁶.

ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوباً، فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه، وقد حمل بعضهم قول أبي الطيب:

وعذلت أهل العشق حتى نقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

على المقلوب، وتقديره عنده: كيف لا يموت من يعشق " ⁵⁷، ومن وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة، قوله عز وجل: (واشتعل الرأس شيباً) ⁵⁸ استعارة؛ لأن الاشتعال للنار،

ولم يوضع في أصل اللغة للشيب⁵⁹، ومن وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشواً، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن، أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان الكلام منظوماً، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك. وهذا الباب يحتاج إلى شرح وبيان تفصيله أن كل كلمة وقعت هذا الموقع من التأليف فلا تخلو من قسمين : إما أن تكون أثرت في الكلام تأثيراً لولاها لم يكن يؤثر، أو لم تؤثر، بل دخولها كخروجها منه ، فإذا كانت مؤثرة فهي على ضربين: أحدهما - أن تفيد فائدة مختارة يزداد بها الكلام حسناً وطلاوة، والآخر - أن تؤثر بالكلام نقصاً بالمعنى وفساداً، والقسمان مذمومان ، والآخر المحمود - هو أن تفيد فائدة مختارة " ⁶⁰. فمثال الكلمة التي تقع حشواً وتفيد معنى حسناً ويتشهد به على التمام والكمال قول أبي الطيب: ⁶¹

وتحتقر الدنيا احتقاراً مجرباً يرى كل ما فيها وحاشاك فانياً

لأن -حاشاك- هاهنا لفظة لم تدخل إلا لكمال الوزن، لأنك إذا قلت- احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانياً- كان كلاماً صحيحاً مستقيماً، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاءً حسناً للممدوح في موضعه. ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً، وهذا هو المعاطلة التي وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى بتجنبها، فقال: كان لا يعاقل بين الكلام، وتعد المعاطلة عاملاً أساسياً في تعقيد الكلام، إذ مدار الأمر منه على الترتيب والتعقيد ، يقول الجرجاني: " وأما التعقيد فإنما كان مذموماً، لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة، ويسعى إليه من غير الطريق " ⁶²، " ويبدو أن المعاطلة هي أصل العيوب في النظم، إذ تخالف بابا من أبواب العمود الذي يتحدد فيه مقياس مشاكلة اللفظ للمعنى، فالمعاطلة اعتناء مسرف فيه باللفظ مع الإخلال بالمعنى " ⁶³.

خان الصفاء أخُ خان الزمانُ أخاً عنه فلم يتخونُ جسمهُ الكمدُ

لأن ألفاظ هذا البيت يتشبه بعضها ببعض، وتدخل الكلمة من أجل كلمة أخرى تجانسها وتشبهها، مثل خان وخان ويتخون وأخ وأخاً، فهذا هو حقيقة المعاطلة. ⁶⁴، ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض، في موضع الجدِّ ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه، ومثال ما استعمل من هذه الألفاظ في غير موضعه قول أبي تمام : ⁶⁵

ما زال يهذي بالمكارمِ دائباً حتى ظننا أنه محمودٌ

فان المحموم من الألفاظ التي تستعمل في الدم، وليس من الفاظ المدح⁶⁶، ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنتثر من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم. ومما يذكر من هذا النوع في استعمال ألفاظ المتكلمين قول أبي تمام:⁶⁷

مودّة ذهب أثمارها شبّه وهمّة جوهر معروفها عرضُ

لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم. ومن ألفاظ النحويين قوله أيضاً:⁶⁸

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلعب الأفعال بالأسماء

ومن شروط الفصاحة، المناسبة بين اللفظين، وهي على ضربين: مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة، ومناسبة بينهما من طريق المعنى. وأما المناسبة بينهما من طريق الصيغة، فلها تأثير في الفصاحة. وقد حكى الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال في وصيته في البلاغة: " إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها، بل وجدتها قلقة في مكانها، نافرة في موضعها، فلا تكرهها على القرار في غير موطنها، وهذا كلام صحيح يجب أن يقتدى به في هذه الصناعة"⁶⁹، وسيقوم الدارس بذكر الأمثلة الموضحة لمفاصل هذا المبحث، ومثال ذلك ما رواه أبو الفتح عثمان بن جني، قال: قرأت على أبي الطيب قوله:

وقد صارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق

فقلت: قرحى، فقال: إنما قلت - قرحاً - لأن قلت - بهاراً، فهذه المناسبة التي تؤثر في الفصاحة، والشعراء الحذاق والكتاب يعتمدونها. ومن المناسبة بين الألفاظ في الصيغ السجع والازدواج، وبعض الناس يذهب إلى كراهية السجع والازدواج في الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه، فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه، وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها، ويظهر آثار الصنعة فيها، ولولا ذلك لم يرد في كلام الله تعالى، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، والفصيح من كلام العرب"⁷⁰.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأمورة"، فقال - مأمورة - لأجل المناسبة، والمستعمل - مؤمورة - أي كثيرة النتائج. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" ولم يقل - ملمة - لأجل المناسبة. والسجع هو الذي يحقق هذه المناسبة"⁷¹، ثم يحذر في الوقت نفسه من أن يكون السجع هو الغالب على النص مما يفقده ألقه ويجعله عرضة للملل.

ويرى الدارس أن حديثه عن التناسب في القوافي وتجنبيها العيوب هو حديث عن الوزن ومدى أهمية إيقاع التناسب في الوزن؛ إذ إن العمل الشعري قائم بشكل أساسي عليه، يؤكد ذلك حديثه عن التناسب في المقدار والتصريع... فأما القوافي فالمختار منها ما كان متمكناً يدلُّ الكلام عليه، وإذا أنشد صدر البيت، عرفت قافيته⁷²، ومما يجب أن يعتمد في القافية ألا تكون الكلمة إذا سكت عليها كانت محتملة لمعنى يقتضي خلاف ما وضع الشعر له، مثل أن يكون مديحاً فيقتضي بالسكوت عليها، وقطع الكلام بها وجهاً من الدم، أو معنى يتطير منه الممدوح، أو ما يجري هذا المجرى. وروي أن أبا الطيب لما أنشد قصيدته التي ودع بها عضد الدولة فقال:

وأيًّا شئتِ يا طرقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكاً

قال عضد الدولة : ويوشك أن يصاب في طريقه، وكانت منيته فيه، وقال أبو الفتح عثمان بن جني : جعل القافية هلاكاً، فهلك. ومن هذا الجنس أيضاً الابتداء في القصائد؛ فإنه يحتاج إلى تحرز فيه وقد روي أن ذا الرمة قال :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ كأنه من كلِّ مفريةٍ سربُ

وقد أنكر عبد الملك بن مروان على جرير على ما هو دون هذا القول، وذلك أنه لما انشده: أتصحو أم فؤارك غير صاح، فقال عبد الملك: بل فؤارك⁷³. ولما كان تأثير الشعر يتم بسبب التلاوم بين الموضوع ونفسية السامع، فقد اتضح لماذا أغضب الشاعر هنا المخاطب. هذه أمثلة شعرية خالفت قواعد اللياقة في اصطناع عبارة مهذبة في مراعاة المقام الطبقي للمخاطب، ففقدت التناسب، وكانت ذات مردود سلبي على الشاعر، إذ لو أدرك الشاعر المقام الطبقي لمتلقي النص، وتحرز في مفتتح قصيدته، لما آل إلى النتيجة التي تلقاها منه.

ثم يدخل ابن سنان في الحديث عن التناسب من خلال عدة أمور لها علاقة بصميم التشكيل الفني للعمل الشعري، وذلك من خلال الحديث عن القافية والإيقاع والوزن والموسيقى والتساوي في المقدار. ومن إشكال التناسب في المظهر اللفظي التركيبي التناسب في المقدار من خلال الوزن العروضي، الذي يضمن تساوي الطول والقصر في الأبيات الشعرية بسبب تساوي أزمنة نطقها⁷⁴، مبدئياً إعجابه بقول البحري:

أهوى فأسعفُ بالتحية خلسةً والشمسُ تلمعُ في جناحي طائر .

سرنا وأنت مقيمةٌ ولربما كان المقيمُ علاقةً للسانر

"وهو إعجاب يرتد حتماً إلى ارتباط القافية في علاقات مع غيرها من مكونات النص، ويرجع الإعجاب إضافة إلى ذلك للتناسب الحاصل فيها، هذا التناسب لا يصر إليه إلا بتجنب الإقواء

والسناد والتضمين"⁷⁵، ومن تناسب القوافي تجنب الإقواء فيها، وهو اختلاف إعرابها، فيكون بعضها - مثلاً - مرفوعاً، وبعضها مجروراً، وقول النابغة:

أَمِنْ آلِ مِيَةَ رَائِحٍ أَوْ مَعْتَدِي عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مُزَوِّدٍ
زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رَحَلْتَنَا غَدًا وبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ

والإيطاء في القوافي عيب، وهو أن تتفق القافيتان في قصيدة واحدة. والسناد أيضاً عيب، وهو اختلاف في الحركات قبل حرف الروي "⁷⁶، ومن عيوب القوافي أن يتم البيت ولا تتم الكلمة التي منها القافية حتى يكون تمامها في البيت الثاني. ومما يجري هذا المجرى التضمين، وهو ألا تستقل الكلمة التي هي القافية بالمعنى حتى تكون موصولة بما في أول البيت الثاني، وذلك مثل قول النابغة الذبياني:

وهم وردوا الجِفَارَ على تميمٍ وهم أصحابُ يومِ عَكاظٍ إني
شهدتُ لهم مواطنَ صادقاتٍ أتينهم بنصحِ الوَدِ مني

"إذ كيف تنتهي حدود البيت بالضمير الذي يظل مفتقرا إلى كلام آخر يتعلق به، فالجملة الفعلية بكاملها تكون محل رفع خبر إن لتجيء في صدر البيت الثاني، فالبيت الأول تتصل عباراته بالبيت الثاني من جهة الإسناد، ولذلك كانت الجملة الاسمية منقسمة بين نهاية البيت الأول للنابغة وأول البيت الثاني.. وهو عيب من عيوب القافية لأنه يقضي على استقلال البيت"⁷⁷.

وما يقوله ابن سنان عن التصريع هو الذي يذهب إليه في حديثه عن مظهر ثان من مظاهر التناسب على مستوى "الوزن وهو الذي يطلق عليه التصريع، ويسميه غيره ترصيعا وموازنة وتسميها وتسجيعا، وهو كله يرجع إلى شيء واحد، والأساس في التصريع إنما يحسن إذا وقع قليلا غير نافر، أما إذا كثر وتكرر أو توالى، فإنه لا يحسن، لأنه يدل على التكلف وشدة التصنع"⁷⁸. وأما التصريع، فيجري مجرى القافية، وليس الفرق بينهما إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت، والقافية في آخر النصف الثاني منه، ومن التناسب أيضاً التصريع، وهو أن تصير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم، أو الفصل من الكلام المنثور، مسجوعة، ومن أمثلة ذلك: وقال بشامة بن عمر بن الغدير:

هوانُ الحياةِ وخزيُّ المماتِ وكلاً أراه طعماً وبيلاً .

ومن التناسب أيضاً حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب؛ ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً، وإلى المؤخر مؤخراً، ومثال ذلك قول الشريف الرضي: -

قلبي وطرفي منك هذا في حمي قيظٍ وهذا في رياضِ ربيع

فإنه لما قدم - قلبي - وجب أن يقدم وصفه، بأنه في حمى قيظ، فلو كان قال - طرفي وقلبي منك - لم يحسن في الترتيب أن يؤخر قوله - في رياض ربيع - والطرف مقدم.

ومن المناسبة أيضا التناسب في المقدار، وهذا الشعر محفوظ بالوزن، فلا يمكن اختلاف الأبيات في الطول والقصر، فإن زاحف بعض الأبيات، أو جعل الشعر كله مزاحفاً حتى مال إلى الانكسار، وخرج من باب الشعر في الذوق، كان قبيحاً ناقص الطلاوة، كقصيدة عبيد بن الأبرص: أقفر من أهله ملحوب. ومن التناسب بين الألفاظ المجانس، وهو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض، إن كان معناهما مختلفاً، أو تتوافق صيغتا اللفظين مع اختلاف المعنى، فهذا إنما يحسن في بعض المواضع، إذا كان قليلاً غير متكلف، ولا مقصود في نفسه⁷⁹، قول امرئ القيس:

لقد طمح الطمّاحُ من بُعدِ أرضه ليلبسني من دانه ما تلبّسًا

ولاحظ التجانس بين الكلمتين طمح طمّاح مع اختلاف المعنى، ويلبس وتلبسًا مع الاختلاف في المعنى وكل هذا في بيت واحد. وهذه أمور تترك المتلقي وتعمي المعنى المخبوء في البيت، فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى، فهي تتناسب على وجهين: أحدهما - أن يكون معنى اللفظتين متقارباً، والثاني - أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريباً من المضاد، فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين، فليست بمتناسبة⁸⁰، وقسم بعضهم التضاد، فسمى ما كان فيهما لفظتان معناهما ضدان كالسواد والبياض - المطابق - وسمى تقابل المعاني التوافق بين بعضهما حتى تأتي في الموافق بما يوافق في المخالف بما يخالف على الصحة - المقابلة - وسمى ما كان فيه سلب وإيجاب - السلب والإيجاب -، ولكل من ذلك أمثلة سنذكرها ونوضحها.⁸¹ ومنه ما أنكره نصيب على الكميت مثال المطابقة غير الحسنة في قوله: -

أم هل ظعائنُ بالعلياءِ رافعةٌ وإن تكاملَ فيها الدلُّ والشنبُ

فإنه قال له: أين الدل من الشنب؟ إنما يكون الدل مع الغنج ونحوه، والشنب مع اللبس أو ما جرى مجراه من أوصاف الثغر والفم، فكان الدل والشنب في قول الكميت عيباً، لأنهما لفظتان لا تتناسبان بتقارب معنييهما ولا بتضادهما، فأما ما يستحسن من المطابقة، فنحو قول أبي الطيب:

أزورهم وسوادُ الليلِ يشفعُ لي وأنتني وبياضُ الصبحِ يُغري بي

فهذا البيت، مع بعده من التكلف كل لفظه من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضد: فأزورهم وأنتني، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبي، وأصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصبح ضدّين، بل يجعلون ضدّ الليل النهار، لأنهم يراعون في المضاد استعمال الألفاظ، وأكثر ما يقال الليل والنهار، ولا يقال الليل والصبح⁸²، ومما

يجري مجرى المطابق أن يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً ويتلى بأخر يجعل فيه ما كان مقدماً في الأول مؤخراً في الثاني وما كان مؤخراً مقدماً، ومثله قول بعضهم: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك. فأما - المخالف - وهو الذي يقرب من التضاد، فكقول أبي تمام :

تردى ثياب الموت حُمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فالحمر والخضر من المخالف، وبعض الناس يجعل هذا من المطابق.⁸³ وأما الإيجاب والسلب فكقول أبي عبادة : -

يَقِيضُ لي من حيثُ لا أعلم النوى ويسري إلي الشوقُ من حيثُ أعلم

فقول - لا أعلم وأعلم - من السلب والإيجاب. فأما الذي ذكرنا أنه يسمى - المقابلة - في مراعاة المعاني حتى يأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة. "ومن المنطقي أن يكون التناقض ضد التناسب عند ابن سنان، وهو عيب في المعاني بغير شك، وإذا كانت العرب قد أجازت التناقض في الشعر، فإن تركه فيما يذهب إليه الخفاجي أحسن وأولى"

84

ويذكر ابن سنان مصطلحات أخرى تحقق التناسب منها الإيجاز والمساواة، وأي زيادة أو نقص من شأنه أن يخل بالمعنى ويفقد النص توازنه، كما يذكر المصطلحات التي هي ضد هذه كالحشو والتطويل والتذييل، فأما المساواة بين اللفظ والمعنى، فهي كوصف بعض الأدباء رجلاً فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر، وحد المساواة المحمودة هو إيضاح المعنى باللفظ الذي لا يزيد عنه ولا ينقص، مثاله قول زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم

(ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز، وحذف فضول الكلام حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة... ويقول ولأنا نذهب إلى أن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة)⁸⁵، ومن أمثلة الإيجاز قوله تعالى "ولكم في القصص حياة"⁸⁶، لأن هذه الألفاظ قد عبر بها عن معنى كثير⁸⁷، وضد الإيجاز المحمود إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، وضد الإيجاز التطويل وهو عنده عيب وعي⁸⁸، والحشو أيضاً لفظ يتميز عن الكلام بأنه إذا حذف منه، بقي المعنى على حاله، مثاله قول أبي عدي:

نحن الرؤوس وما الرؤوس إذا سمّت في المجد للأقوام كالأزنان

فالأقوام هي الحشو؛ لأن هذه اللفظة دون ألفاظ البيت هي التي إذا حذفت منه، بقي المعنى بحاله⁸⁹

المحور الثالث التناسب في المعاني

لا يكاد يخلو كتاب نقدي من الحديث عن المعاني، ذلك أنها ركن أساسي في العملية الإبداعية، وهي الهدف الأساسي من أي تشكّل نصي عبر مجموعة من السياقات والتراكيب، لكن ما يهم هذا المحور في هذا البحث هو تأطير حقيقي لمجموعة الصفات التي تضمن اللياقة في تأدية المعاني ضمن قوالب لفظية في حالة من التناغم والتناسب، كما نص عليها سر الفصاحة بعيداً عن التعقيد؛ لأن التعقيد والتوعر يستهلكان المعاني كما جاء في صحيفة بشر "إياك والتوعر في الكلام، فإنه يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك"⁹⁰. ويدرك الخفاجي صعوبة هذا المحور إذ يقول: "أما حصر المعاني بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على حسب ما ذكرناه في الألفاظ، فمسير متعب، ولكن نحتاج إلى أن نومي إلى المعاني التي تستعمل في صناعة تأليف الكلام المنظوم والمنثور، ونبين كيف يقع الصحيح فيها والفاقد، والتام والناقص"⁹¹. ثم يذكر ابن سنان أن الكلام قد يغمض على المتلقي من جهة المعنى، وذلك لتضمين المعنى أموراً فنية من شأنها إبهامه على المتلقي. ومن حق المتلقي أياً كان مقامه الطبقي أن يحظى من النص المشكل بمعنى واضح، ويذكر ابن سنان الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام على السامع "وأما اللذان في المعنى فأحدهما الذي يكون في نفسه دقيقاً، والآخر يحتاج في فهمه إلى مقدمات"⁹²، لذلك يؤكد ابن سنان أهمية المعاني في غير موضع من الكتاب ويوليها اهتمامه زاكراً أن "معيارها العقل والعلم وصفاء الذهن، وتكلم على المعاني من حيث كانت موجودة في الألفاظ المؤلفة المنظومة على طريقة الشعر والرسائل"⁹³.

"ونجده يذكر أي ابن سنان أن المعاني تتناسب، وذلك بأن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر، أو قريباً من المضاد، وقد سماها ابن سنان المطابق لمساواته إياه في المقدار، وإن اختلف الجنس".⁹⁴

"فالتناسب بين المعاني له أشكال كثيرة، ذلك أن المعاني تقتترن معا في علاقات، والاقتران متنوع ومتعدد تعدد المناسبة والعلاقة وتنوعها، فمثلاً اقتران المعنى بمضاده حيث تترد المطابقة والمقابلة، وهناك اقتران الشيء بما يناسب مضاده وهو المخالفة، ومعنى هذا كله أن تناسب المعاني لا يمكن أن يقوم على علاقة مشابهة وحدها، فهناك علاقات كثيرة"⁹⁵

في هذا المحور سيتناول الباحث صور التناسب التي أكدها الخفاجي، وسيعرض لبعض الأمثلة التي تحقق التناسب من جهة المعنى، كما سيذكر أمثلة أخرى انتفت من النص صفة التناسب فضاء المعنى "وليس التناسب الذي يرومه ابن سنان في معرض حديثه عن اللفظ مفرداً أو في السياق، بل يروم مثله في المعنى، ويؤكد ضرورته فيه، بنفس القوة التي يؤكد فيها ضرورة

سابقة" ⁹⁶. وهذا ما جعل ابن سنان يذكر كل ما يخص المعنى من كل جوانبه، وما هي الأوصاف التي تكون عليها المعاني.

"فإن الأوصاف التي تطلب من هذه المعاني هي الصحة والكمال والمبالغة والتحرز مما يوجب الطعن والاستدلال بالتمثيل والتعليل والصحة في التقسيم وغيرها، ومن مظاهر هذه الصحة الاستحالة والتناقض، ومن الصحة صحة التشبيه، ومن الصحة صحة الأوصاف في الأغراض، ومن الصحة صحة المقابلة، وصحة النسق وصحة النظم، وحسن التخلص، وذكر الغلو والمبالغة، والتتميم والتكميل، وسنذكر من أمثلة ذلك ما يُعرب عن قصدنا، ويوضح مرادنا" ⁹⁷. وكل هاته المظاهر من الصحة التي تكون ما يشكل التناسب الخاص بالنص الشعري. ليس غريباً أن يطلب الخفاجي للمعاني هذه الأوصاف، وقد شغل نفسه على طول الكتاب، وفصل القول في الألفاظ والتراكيب والشروط التي يجب أن تكون عليها بغية الوصول بالنص الشعري إلى البلاغة " والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً " ⁹⁸.

أما الشكل الآخر من أشكال التناسب المعنوي، فهو قائم على التضاد والمخالفة، وهو ما عرف لدى النقاد بالمطابقة أو المقابلة، وتكون المطابقة باقتران لفظتين معناهما ضدان كالسواد والبياض، وأما المقابلة، فلاقتران المعنى بمعنى آخر يتنزل منزلة الضد منه، وقد يشهد هذا التقسيم تفريعات أخرى كالسلب والإيجاب والمخالفة، إلا أن محصولهما جميعاً يقوم على التناسب بين المعاني بعلاقة غير المشابهة والتجاور مطلقاً " ⁹⁹.

فسيقوم الدارس بذكر الأمثلة على المعاني حسب ورودها في الكتاب، أما الصحة في التقسيم، فإن تكون الأقسام المذكورة لم يخل بشيء منها، ولا تكررت، ولا دخل بعضها تحت بعض، ومثال هذا في النظم قول نصيب :

فقال: فريقُ القومِ: لا، وفريقُهُم نعم، وفريقُ قال: ويحك! ما ندري

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام" ¹⁰⁰. فهذا مثال حقق التناسب حسب ابن سنان، لأنه تضمن كل الاحتمالات في الإجابة، ولا يوجد خيار لم يمر عليه الشاعر. فايقاع التناسب بين العناصر يجعلنا قادرين على رؤية الأشياء من منظور أجمل. فأما الأقسام الفاسدة، فكقول جرير :-

صارتُ حنيفةً أثلاثاً فثلثُهُم من العبيدِ وثلثُ من موابيها

فهذه قسمة فاسدة من طريق الإخلال؛ لأنه قد أخل بقسم من الثلاثة، وقيل : إن بعض بني حنيفة سئل من أي الأثلاث هو من بيت جرير ؟ فقال: هو من الثلث الملغي ¹⁰¹. وطبيعي أن يتم التندر بهذا البيت إذ نسي الشاعر في قسمته بعدما نص على أن الأقسام ثلاثة، ولدى سماع هذا

البيت فإن أفق التوقع عند المتلقي يبقى في حالة انتظار الثلث الأخير، وفقدانه يحدث إرباكا في المعنى. ومن الصحة تجنب الاستحالة والتناقض. فأما التناقض في الشعر، فكقول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

أرى هَجْرَهَا وَالْقَتْلَ مِثْلَيْنِ فَأَقْصِرُوا مَلَامَكُمْ فَالْقَتْلُ أَعْفَى وَأَيْسَرُ

فقال هذا الشاعر - إن الهجر والقتل مثلان - ثم سلبهما ذلك. فقال: إن القتل أعفى وأيسر، فكأنه قال: إن القتل مثل الهجر، وليس هو مثله، وذلك متناقض، ولو كان استوى له أن يقول: بل القتل أعفى وأيسر، لكان الشعر مستقيماً؛ لأن لفظة - بل - تنفي الماضي، وتثبت المستأنف.¹⁰² ومن الصحة ألا يضع الجائز موضع الممتنع، فإنه يجوز أن يضع الممتنع موضع الجائز، إذا كان في ذلك ضرب من الغلو والمبالغة، ولا يحسن أن يوضع الجائز موضع الممتنع؛ لأنه لا علة لجواز ذلك، وهو ضد ما يحمد من الغلو والمبالغة في الشعر، ومن أمثلة هذا قول الشاعر:

وإن صورة راقتك فاخبرُ فربما أمرٌ مذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ

فبنى الكلام على أن العود في الأكثر يكون حلواً، بقوله فربما، وليس الأمر كذلك، بل العود الأخضر في الأكثر مر. وكأن هذا الشاعر وضع الأكثر موضع الأقل، وذلك غلط في المعنى".¹⁰³ ثم يتحدث عن التشبيه وصحته ودوره في تأدية المعنى بشكل قوي وجلي ولا يعرف المدارس كيف فهم رجاء عيد من كلام ابن سنان ما ذهب إليه في حديثه، "يقول رجاء عيد كذلك لا نظن أن من الفهم الصحيح أن القول بأن التشبيه يكتسب حسنه من إيضاح المعنى فذلك تبسيط للعمل الفني"¹⁰⁴ ، ومن الصحة صحة التشبيه، وهو أن يقال أحد الشيين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات، ولن يجوز أن يكون أحد الشيين مثل الآخر من جميع الوجوه حتى لا يعقل بينهما تغاير البتة، وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه"¹⁰⁵ . والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسنٌ هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد"¹⁰⁶ . وقوله جل وعز: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً)¹⁰⁷ وقوله تبارك وتعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)¹⁰⁸ . وهذه التشبيهات كلها فيها ما يبيّن من تشبيه الخفي بالظاهر المحسوس والذي لا يعتاد بالمعتاد، لما في ذلك من البيان".¹⁰⁹ ، ومن التشبيه المختار قول امرئ القيس :-

كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي

وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء، لأن مشاهدة العناب والحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة ويابسة"¹¹⁰ ، وأما رديء التشبيه فكقول المرار¹¹¹ .

وخالٍ على خديك يبدو كأنه سنًا البدر في دعجاءٍ بارٍ دجونها

لأن الخدود بيض، والمتعارف أن يكون الخال أسود، فتشبيبه الخدود بالليل والخال بضوء البدر تشبيه ناقض للعادة.¹¹² ، وبقدر ما يلفتنا تناسب النظم إلى قدرة الشاعر على تشكيل لغته يلفتنا تناسب الأسلوب إلى قدرة الشاعر على اكتشاف العلاقات بين المدركات والعناصر "¹¹³

ومن الصحة صحة الأوصاف في الأغراض، وهو أن يمدح الإنسان بما يليق به، ولا ينفر عنه، وكذلك في كل غرض من الأغراض الشعرية، حتى يكون كل شيء موضوعاً في المكان الذي يليق به"¹¹⁴. لذلك عيب جميل في قوله :-

رمى الله في عيني بُئينةً بالقذى وفي العُرِّ من أُنْيابها بالقوادح

وقيل: ليس هذا كلام صادق المحبة، بل هذا دعاء مبغض قد تجاوز قدر السلوة"¹¹⁵. وقد عيب على أبي عبادَةَ في مدحه الخليفة بقوله:

لا العذلُ يردعه ولا التعنيفُ عن كرمِ يصدّه

وقيل: من هذا الذي يجسر على عذل الخليفة وتعنيفه وليس هذا المدح مما يصح للملوك والأمراء فضلاً عن الأئمة والخلفاء "¹¹⁶ ، ويفيض ابن سنان في ذكر الأمثلة التي أخفق قائلوها في عدم مراعاة المقام الطبقي للمخاطب، واصطناع عبارة مهذبة تليق به، هذا بالإضافة لرتبته الاجتماعية، فإنه قد يكون على حظ عالٍ من الثقافة، لذلك ردت كثير من النصوص الشعرية فور تلقيها " ومن الصحة صحة المقابلة في المعاني، وهو أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، والأصل في هذه المناسبة أن لها تأثيراً قوياً في الحسن "¹¹⁷. ومن ذلك قول الآخر :-

جزى اللهُ خيراً ذاتُ بعلٍ تصدقتُ على عَزْبٍ حتى يكون له أهلُ

فإننا سنجزيها بمثل فعّالها إذا ما تزوجنا وليس لها بعلُ

وهذه أيضاً مقابلة صحيحة، لأنه جعل في مقابلة أن تكون المرأة ذات بعل وهو لا زوج له أن يكون ذا زوج وهي لا بعل لها، وقابل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزبة "¹¹⁸. فاما فساد المقابلة، فكقول أبي عديّ القرشيّ :

يا ابنَ خيرِ الأخياريّ من عبْدِ شمسٍ أنت زَيْنُ الدُّنَا وغَيْثُ الجنودِ

فليس غيث الجنود مقابلاً لزِين الدنيا ولا موافقاً ، ومن الصحة صحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً

بالأول وغير منقطع عنه، ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح، ذلك أن حسن التخلص - كما يرى الدارس - من الأمور الفنية ذات العلاقة بالحالة النفسية والطقس الشعوري للمتلقي، فإن مفاجأته في الحديث من موضوع إلى موضوع آخر دونما توطئة يدخله في حالة من الانقطاع عن جو النص الشعري، ويفقده القدرة على مواصلة المبدع في نسه، ولقد أكد النقاد ذلك كثيراً. ومن خروج المحدثين قول أبي عبادة البحراني يصف الروض¹¹⁹:

شقائقُ يحملنُ الندى فكأنه دموعُ التصابي في خدودِ الخرائدِ
كأن يدَ الفتحِ بنِ خاقانٍ أرفَلتْ تليها بتلكِ البارقاتِ الرُواعِدِ

وأما إذا ابتدئ بالمدح أو بغيره من الأغراض، فالأحسن أن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود، كما ابتدأ أبو الطيب المتنبي قصيدته التي مدح بها سيف الدولة، واعتذر له عن ظفر الروم بجيشه وقتلهم وأسره جماعة منهم، فقال:

غيري بأكثرِ هذا الناسِ يندعُ إن قاتلوا جُبُنا أو حدثوا شَجَعوا
فابتدأ بغرضه من أول القصيدة¹²⁰.

ومن الصحة صحة التفسير، وهو أن يذكر مؤلف الكلام معنى يحتاج إلى تفسير، فيأتي به على الصحة من غير زيادة ولا نقص، كقول الفرزدق:¹²¹

لقد جئتُ قوماً لو لجأتَ إليهمُ طريد دمٍ أو حاملاً ثِقَل مُغْرَمُ
لألفيتُ فيهم مُعطياً ومُطاعناً وراءك شزرًا بالوشيجِ المقومُ

وهذا تفسير للأولى موافق، فأما فساد التفسير، فكقول بعضهم :

فيا أيُّها الحيرانُ في ظلمِ الدُّجى ومَنْ خاف أن يلقاه بغيٌ من العدى
تعال إليه تلقَ من نورِ وجهه ضياءٌ ومن كفيه بحراً من الندى

فإن هذا الشاعر لما قدم في البيت الأول الظلم وبغي العدى، كان الوجه في التفسير أن يأتي في البيت الثاني بما يليق به، فأتى بالضياء بإزاء الظلم، وذلك صواب، وكان يجب أن يأتي بإزاء بغي العدى بالنصرة أو العصمة أو ما جرى مجرى ذلك، فلما جعل مكانه ذكر الندى كان التفسير فاسداً¹²²، ويدخل في هذا السياق ما يعرف بالتميم والتكميل وهو شعور المبدع بأن النص يفتقر إلى كلمة فيأتي بها كي لا يشوه النص ويضيع المعنى. وأما كمال المعنى، فهو أن تستوفي الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل جودته، وذلك مثل قول نافع بن خليفة الغنوي:¹²³

رجالٌ إذا لم يُقبلِ الحقُّ منهمُ ويعطوه عاذوا بالسيوفِ القواضبِ

فتتم المعنى بقوله : ويعطوه ؛ لأنه لو اقتصر على قوله: إذا لم يقبل الحق منهم عاذوا بالسيوف، كان المعنى ناقصاً. وأما المبالغة في المعنى والغلو، فإن الناس مختلفون في حمد الغلو وذمه، فمنهم من يختاره، ويقول: أحسن الشعر أكذبه، ويستدل بقول النابغة وقد سئل من أشعر الناس؟ فقال: من استجد كذبه، وأضحك رديئه، وهذا هو مذهب اليونانيين في شعرهم، ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة، ويعيب قول أبي نواس: ¹²⁴

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ
لِتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

لما في ذلك من الغلو والإفراط الخارج عن الحقيقة، فاحتوى البيت على مبالغة عصية على التصديق والغلو والمبالغة يؤتى الحذر منهما من جهة الاعتقاد، ففي هذا البيت مهما بلغت شجاعة الممدوح، فلن تصل إلى الحد الذي تخشاه النطف التي لم تخلق، وهذا وصف لا ينطبق إلا على الذات الإلهية، "والذي أذهب إليه المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو؛ لأن الشعر مبني على الجواز والتسميح، لكن أرى أن يستعمل في ذلك -كاد- وما جرى في معناها ليكون الكلام أقرب إلى حيز الصحة، كما قال أبو عبادة: ¹²⁵

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا
مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وأما التحرُّزُّ مما يوجب الطعن فأن يأتي بكلام لو استمر عليه، لكان فيه طعن، فيأتي مما يتحرز به من ذلك الطعن، كقول طرفة: ¹²⁶

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا
صَوَّبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةُ تَهْمِي

وقول ذي الرمة:

أَلَا يَا اسْلِمِي يَا دَارَ مِيَّ عَلَى الْبَلِي
وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجِرْعَائِكَ الْقَطْرُ

وقالوا: إذا لم يزل القطر منهلاً عليها عفي آثارها ودرس معالمها، فتحرز طرفة بقوله: غير مفسدها من هذا الطعن كما عابوا على ذي الرمة بقوله: ألا يا اسلمي يا دار مي على البلي. ومن الاحتراز أيضاً قول عبدالله بن المعتز بالله في صفة الخيل:-

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا
فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٍ وَأَرْجُلُ

فإنه لو لم يقل - ظالمين - لكان للمعتز عليه أن يقول: إنما ضربت هذه الخيل لبطنها، كما عابوا قول امرئ القيس:

فَللَّزَجْرِ أَهْوَبُ وَلِلْسَاقِ دِرَّةٌ
وَلِلْسَوِّطِ مِنْهَا وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْدَبٌ

وقالوا: إذا أحوج إلى هذا كله فليس بسريع، فقال عبدالله - ظالمين - تحرزاً من هذا الطعن.¹²⁷

في نهاية هذا البحث يخلص الدارس إلى أن الخفاجي في سر الفصاحة كان يسعى إلى تحقيق مبدأ التناسب بين عناصر العمل الأدبي، بإدراكه أن التناسب " قرين الوحدة فهو حالة من التناغم بين العناصر تضم بين المؤتلف والمختلف، وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفاً " ¹²⁸.

وقد خلص هذا البحث إلى قراءة مصطلح التناسب في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ضمن ثلاثة محاور، وهي على النحو الآتي: تناول المحور الأول - التناسب في الألفاظ المفردة، فقد استهدف هذا المحور التركيز على فصاحة الألفاظ المفردة، وذلك بتنقيتها مما يعلق بها من الشوائب التي تجعلها ركيكة كزة، وثقيلة على السمع، أو قد تكون عامية، غريبة وحشية، وغير مطابقة لقواعد اللغة، وفنية الألفاظ، ثم تعرض المحور الثاني للألفاظ المؤلفة. وقد حرص ابن سنان في هذا المحور على أن يجعل صفات الألفاظ الفصيحة المفردة صفات في الألفاظ المؤلفة، ومنها عدم التكرار، ومنها وضع الألفاظ مواضعها، ومنها ألا يكون الكلام مقلوباً، وألا يرد في التأليف حشوً. وأن يتعد فيه عن المعازلة، والغلو والمبالغة، وأن يراعي المبدع حسن التأليف وتلاؤمه في الحروف والكلمات، والتسهل في العبارات، ثم جاء المحور الثالث ليتحدث عن التناسب في المعاني، إذ ذكر ابن سنان أن الكلام قد يغمض على المتلقي من جهة المعاني، وأن هناك أوصافاً للمعاني يجب أن تحققها منها: الصحة والكمال والتحرز مما يوجب الطعن، وذكر أن من الصحة صحة التقسيم، والأوصاف، والأغراض، والمقابلة، والنسق، وحسن التخلص. وقد قام الباحث بالوقوف على جميع هذه المحاور داخل البحث مدعماً رأيه الفني، ومدلاً على كل ذلك، بالأمثلة الشعرية، وقد خلص الباحث إلى أن تأثير الشعر إنما يتم بسبب التلاؤم بين جميع عناصر ومكونات العملية الإبداعية. كما حرص ابن سنان أن يلفت نظر المبدع إلى مراعاة المقام الطبقي للمخاطب، وطالبه باصطناع عبارة مهذبة تليق بمقامه، بالإضافة إلى التلاؤم والتناسب بين الموضوع ونفسية السامع.

Proportionality in ' Sir Al- Fassaha Book '

Hashem Al-Azam, *University College of Irbid, Balqa Applied University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This research sought to examine the term of proportion- ality in' sir Al- Fassaha Book' of Ibn Sinan AL- Khafaji the on three core. The first core examined the proportionality of isolated words , the second core examined the words in context and the third core examined the proportionality in meaning .

This reserch concluded a study of the term proportionality in "Sirr Al- fassaha Book " of Ibn Sinan Al- khafaji on the following three cores: The First core examined proportionality in isolated words concentrating on their purity by freeing them of the defects which make them inadequate, rigid, hard on hearing, informal, weird, uncivilized and not conforming with linguistic rules and skillful words. The second core examined words in context. In this core Ibn Sinan was careful to make the properties of classical isolated words as properties of words in context, including non – repletion; using words in their correct places; non – inversion of words; non – repetition in composition; keeping a way from tautology, extravagance and exaggeration; good composition to conform with letters and words and convenient phrases. The third core examined proportionality in meanings. Ibn Sinan stated that words could be obscure to the recipient in regard to meanings. There are properties of meanings which should be available such as correctness, perfectness and avoiding what may cause discredit. He stated that correctness implies correction of division, descriptions, purposes, comparison, ordering and good extrication.

The researcher discussed all these cores supporting his technical point of view and giving poetic examples. The researcher concluded that the effect of poetry is accomplished through the combination of all the components and constituents of the creative process. Ibn Sinan was careful to draw the attention of the composer to consider the class status of the trecipient. He urged him to create a polite way of addressing that suits his status as well as suitability and proportionality between the topic and the listener's psychology.

قدم البحث للنشر في 2009/4/29 وقبل في 2010/4/19

- (1) مومني قاسم، فصول في الشعر ونقده، ط1، " عمان : الأردن، 1994"، ص 244
- (2) عصفور جابر، مفهوم الشعر، دار الثقافة والنشر، 1978، ص 423.
- (3) الخفاجي أبو عبدالله محمد بن سنان، سر الفصاحة، ط1، " دار الكتب العلمية : بيروت ، لبنان " ص 63
- (4) نفسه ، ص 221
- (5) عباينة سامي، الأسلوب في مباحث النقاد والبلاغيين العرب ، د ط ، رسالة ماجستير، " جامعة اليرموك : الأردن 1997م " ، ص 187
- (6) سر الفصاحة، ص 59 ، وانظر أحمد مطلوب ص 24
- (7) نفسه، ص 64.
- (8) مفهوم الشعر، ص 423
- (9) رجاء عيد، فلسفة البلاغة ، ط2، " منشأة المعارف الإسكندرية ، مصر"، ص 47
- (10) سر الفصاحة، ص 64. وانظر الأسلوب في مباحث النقاد والبلاغيين العرب ، ص 187-188
- (11) نفسه، ص 65
- (12) نفسه، ص 66
- (13) نفسه، ص 66
- (14) نفسه، ص 66
- (15) نفسه، ص 71
- (16) نفسه، ص 68
- (17) نفسه، ص 70
- (18) نفسه، ص 72
- (19) نفسه، ص 73
- (20) نفسه، ص 73
- (21) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي ، ط2، " دار الشروق : عمان ، 1993م"، ص 398.
- (22) سر الفصاحة، ص 77
- (23) نفسه، ص 77
- (24) نفسه، ص 78
- (25) نفسه، ص 81
- (26) نفسه، ص 82
- (27) محمد علي الخفاجي ، علم الفصاحة العربية ، د.ط ، " دار المعارف : القاهرة 1979 ، ص 101
- (28) سر الفصاحة ، ص 84
- (29) نفسه، ص 85
- (30) نفسه، ص 85
- (31) نفسه، ص 88
- (32) نفسه، ص 89
- (33) محمد علي الخفاجي ، علم الفصاحة العربية ، ص 129
- (34) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية ، د.ط " وكالة المطبوعات : الكويت ، 1980م"، ص 30
- (35) مفهوم الشعر، ص 425
- (36) سر الفصاحة، ص 221
- (37) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 138 بتصرف، وانظر سر الفصاحة ، ص 93

التناسب في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي

- (38) سر الفصاحة ، ص 59
(39) تاريخ النقد الأدبي ، ص 210
(40) سر الفصاحة ، ص 97
(41) نفسه، ص 107
(42) سر الفصاحة ، ص 111
(43) فصول في الشعر ونقده ، ص 244
(44) نفسه، ص 239
(45) مفهوم الشعر، ص 426
(46) سر الفصاحة، ص 161
(47) التناسب في الشعر، ص 77 ، وانظر سر الفصاحة . ص 161
(48) عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، دار الشؤون الثقافية ، العراق ، بغداد ، 1986 ، ص 222
(49) مفهوم الشعر، ص 424
(50) سر الفصاحة ، ص 97
(51) نفسه ، ص 98، وانظر الأسلوب في مباحث النقاد البلاغيين العرب ، ص 188
(52) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرماني ، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر ، ص 87 ، وانظر علم الفصاحة العربية . ص 14، وانظر الأسلوب في مباحث النقاد البلاغيين العرب، ص 188
(53) نفسه ، ص 106
(54) نفسه ، ص 111
(55) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ط6، القاهرة ، دار المعارف، ص 154
(56) سر الفصاحة ، ص 111
(57) نفسه ، ص 115
(58) قرآن كريم - مريم - الآية (4)
(59) سر الفصاحة ، ص 118
(60) نفسه ، ص 146
(61) نفسه ، ص 147
(62) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص 142 ، وأنظر الأسلوب في مباحث النقاد البلاغيين، ص 196
(63) شكري المبخوت، جماليات الألفة. " المجمع التونسي للعلوم والآداب: بيت الحكمة، 1993م" ، ص 103
(64) سر الفصاحة ، ص 157-158
(65) نفسه ، ص 161
(66) نفسه، ص 162
(67) نفسه ، ص 166
(68) نفسه ، ص 167
(69) نفسه ، ص 171 - 172
(70) نفسه ، ص 171
(71) نفسه ، ص 176-177
(72) نفسه ، ص 179
(73) نفسه ، ص 182 - 183

العزائم

- (74) الأسلوب في مباحث النقاد والبلاغيين ، ص 198
- (75) فصول في الشعر ونقده ، ص 181
- (76) سر الفصاحة، ص 185
- (77) جابر عصفور، مفهوم الشعر ، ص 459، وانظر سر الفصاحة ، ص 187
- (78) فصول في الشعر ونقده، ص 242 ، وانظر سر الفصاحة ، ص 188 - 189
- (79) سر الفصاحة، ص 190 - 193
- (80) نفسه، ص 194-199
- (81) نفسه، ص 200
- (82) انظر، عائشة الجنيدي، التناسب في الشعر، " جامعة اليرموك: الأردن، رسالة ماجستير، 1994م، ص 73 وانظر سر الفصاحة ، ص 201
- (83) سر الفصاحة ، ص 203 - 204
- (84) فصول في الشعر ونقده ، ص 204
- (85) سر الفصاحة ، ص 229
- (86) البقرة آية 179
- (87) سر الفصاحة ، ص 209
- (88) نفسه ، ص 219
- (89) نفسه، ص 219
- (90) نفسه، ص 229
- (91) نفسه ، ص 234
- (92) نفسه ، ص 221
- (93) فصول في الشعر ونقده ، ص 240
- (94) التناسب في الشعر ، ص 73
- (95) مفهوم الشعر، ص 434
- (96) فصول في الشعر ونقده ، ص 139
- (97) سر الفصاحة ، ص 267 - 273
- (98) سر الفصاحة ، ص 59
- (99) الأسلوب في مباحث النقاد والبلاغيين ، ص 192
- (100) سر لفصاحة ، ص 235
- (101) نفسه ، ص 236
- (102) نفسه ، ص 240 241
- (103) فلسفة البلاغة ، ص 262
- (104) نفسه ، ص 262
- (105) سر الفصاحة ، ص 246
- (106) نفسه ، ص 246
- (107) الجمعة آية 5
- (108) العنكبوت آية 41
- (109) سر الفصاحه ، ص 247-248
- (110) نفسه ، ص 248
- (111) نفسه ، ص 254

- (112) نفسه ، ص 254
(113) مفهوم الشعر ، ص434
(114) سر الفصاحة ، ص256
(115) نفسه ، ص 258
(116) نفسه ، ص 257
(117) نفسه ، 267
(118) نفسه ، ص 267
(119) نفسه ، ص 268
(120) نفسه ، ص 270
(121) نفسه ، ص 270
(122) نفسه ، ص 270-271
(123) نفسه ، ص 270 - 271
(124) نفسه ، ص 272
(125) نفسه ، ص 272
(126) نفسه ، ص274
(127) نفسه ، ص 274 -275
(128) مفهوم الشعر ، ص81

المراجع

أبو عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة، ط 1، (بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية).

الجرجاني عبد القاهر ، اسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، للطباعة والنشر ، ط3، 1992م.

الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام دار المعارف مصر

إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط2،(عمان : الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1993).

أحمد مطلوب ، أساليب بلاغية، (الكويت : وكالة المطبوعات، 1980).

بدوي طبانه ، البيان العربي، ط6، (مكتبة الانجلو العربية، 1976).

جابر عصفور ، مفهوم الشعر، (القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978).

- رجاء عيد ، فلسفة البلاغة، ط2 ، (الناشر منشأة المعارف الإسكندرية).
- سامي عباينة ، الأسلوب في مباحث النقاد والبلاغيين العرب، (الأردن: جامعة اليرموك رسالة ماجستير،1997).
- شكري المبخوت ، جمالية الألفة، (المجمع التونسي لعلوم والآداب، بيت الحكمة، 1993).
- شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ، ط6، (القاهرة : دار المعارف).
- عائشة الجنيدى ، التناسب في الشعر. (رسالة ماجستير جامعة اليرموك 1994م).
- عز الدين أسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، (دار الشؤون الثقافية ، العراق ، بغداد 1986)
- قاسم المومني ، فصول في الشعر ونقده، ط1، (عمان- الأردن 1994).
- محمد على الخفاجي ، علم الفصاحة العربية،(دار المعارف القاهرة، 1979).
- منصور عبد الرحمن ، معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي، ط1 ، (القاهرة: الناشر المعارف، 1981).